

صورة وصفية

عبد السميع

للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني

كان كل امرئ يعرفه — أهل الحى ، وزوار الامام الشافى ، والأجانب السباح الذين يجيئون إلى هذه الناحية ، ليرؤوا مقابر الخلفاء والمالِك ومدافن « الباشوات » . وكان « عبد السميع » — كاسمه — سميماً ، ولكنه غير بصير ؛ وكان له حجر عال عريض يتمد عليه ، ولا يريعه ، فى الشتاء والصيف ؛ ولم يكن يبالى لا الشمس ولا الرياح ، ولا المطر ولا التراب ؛ وكان يظل نهاره على هذا الحجر ، فإذا غابت الشمس ودخل الليل ، اختفى ، كأنما ابتلعته الأرض ، أو انشق له الحجر فتأب فيه ، فشكل ما يعرفه الناس من أمره أن هذا مكانه قبالة المسجد ، وأن كل راكب يعيل إليه ويترجل عنده ، ويضع بين أصابعه زمام دابته ، حتى يفرغ من الصلاة فى المسجد أو غيرها مما جاء له ، فينقذه القرش أو اللبم ويتناول منه المنان ويحييه ويمضى . وكان « عبد السميع » يعرف كل رجل وامرأة وطفل فى الحى ، وكل غريب ألقى إليه بزمام حماره أو بقلته أو فرسه أو مهره ، من صوته ؛ وكان من عجائبه أنه يعرف — وهو مملوك بالأعنة — حمار من الذى نهق ، وأى هذه الدواب تملك لجأها ، وأى البغال من فوق فيرفه عنه ويرى له الرباط الذى تحت حنكه ، وأى حمار تفلت الشكيمة من فيه ، فينهض إليه ويردها إلى مكانها من فيه ، وأى الأفراس تحمل إبرم منطقته فيعقده ، أعنى يدخل لسانه فى طرفه الآخر . وكان كثيراً ما يشير على أصحاب الدواب بأنحاز الراشح تحت لبد السروج لتنشيف العرق ، أو بتضمير الفرس إذا وجدها سميئة ، أو برفع الهماز إذا أحس بيده آثار وخزه فى جلدها ، أو بتضير السرج إذا وجد له عقراً يظهرها ، فقد كان رحيماً رقيق القلب

وكان يأب أن يتخذ عصاً يتوكأ عليها ، ويمس بها الأرض ويقدر لرجله موضعها قبل الخطو ، فكان يمشى مطمئناً واثقاً ،

كأنما يرى الطريق ، ويلقى التحية إلى الناس بأسمائهم ، فى دكاكينهم حين ييلنها ، بل كان يعرف الرء من دبة رجله على الأرض ، فيقول له : « مالك مستجلاً يا فلان ؟ خيراً ، إن شاء الله ! » وكان — ولا يزال — هناك طريق أعلى من الميدان الذى أمام المسجد يؤدى إليه سلم ، درجاته منهدة ، فكان إذا يلقها يرق فيها كأنه صبي فى الماشرة من عمره ؛ ولكن أعجب من هذا كله أنه كان يركب الخيل والحير والبغال ، ويركضها فى الطرق والسكك التى ألفها ، فإذا اعترضه زحام أو قطع من الغم ، حبس الدابة ، ثم أرخى لها اللجام ، وتركها تتخلل الرحمة حتى إذا أحس خلو السكة تقَرَّ (١) بها ، إزعجها ويستحبها ؛ فقد كان كما أسلفت شديد الرفق بالحيوان ، لا تطاوعه نفسه حتى على نكسره بقدمه المارية

وكان دائم البشر ، لا يتجهم ولا يكثب ، ولا يبدو للناس إلا طلق الحياء ، ضحوكاً ، طيب النفس ، حلو الدابة ؛ ولكن غزله كان فيه بعض المنف ، فقد كان إذا دأب فتاة لا يحلو له إلا أن يقبض على شعرها ويجذبه إليه بقوة فينتف بمضه ؛ وكانت الفتيات يحذرن ذلك ويتقين أن يكن منه بحيث تنالن يده وجاء الشتاء ، وجاء منه طبيب عيون ألماني ، فأدار عينه فى الصحراء فرأى على جبل القطم شيئاً كالبناء فأشار إليه وسأل عنه فقالوا هذا قبر الجيوشى — أمير الجيوش — فرجأ منهم أن يكون أحدهم دليله إليه ، فقالوا : « بل يكون دليلك عبد السميع » وجاءوه به ، فتمجّب ، ولو كان يعرف المرية معرفتها لتمثل بقول القائل :

أعنى يقود بصيراً ، لا أبالكُم قد ضل من كانت العيان تهديه

ولكن عبد السميع لم يضله ، ولم يندم الطبيب على ثقته به — وأطمئنانه إليه ، ووجد فى صحبة هذا الدليل القريب كل ما طالمه به وجهه الصبيح من الأنس ، ففشات بينهما بعد هذه الرحلة صداقة فريدة ، فكان الطبيب يزوره كل بضعة أيام ، ويجلس إلى جانبه على حجره المالى ، ويراعبه وهو يحرس الخيل والحير لأصحابها ؛ ووقع من نفسه رفته بها وحسن تمهده لها ، فقال له يوماً — بعريته المخطمة — إنه يريد أن يعمل له فى عينيه شيئاً ، (١) القرآن أن تلوى لسانك إلى فوق وتترقه بمنحك ثم تطلعه بقوة فيفرغ

من مشاهد الشرق

٤ - طائفة البهرا في الهند

ملاحظات في المجتمع البهري

بقلم محمد نزيه

تمت

يقول الكهل الوقور محمد علي بخش رئيس الوزارة البهرية في وصف طائفته ، إنها (طائفة تجارية) لا يحيد عن سبيل التجارة واحد من أبنائها ، فإذا تنكب أحدهم هذه الطريق أو ضلها ، فلاذ بكروى للحكومة ، أو زاول حرفة من الحرف لم تكن التجارة جل هم منها ، فقد انحرف عن تقاليد الطائفة ، وعن ديانتها ، ورمها في أمتع حصونها ، فأصاب منها منازل القدسية والحرية والجاه

هي جماعة أقسمت مذ وضمت في كف الحياة كفها ، ألا تعرف خفض المبودية ولا يعرفها رق هذا الزمان ، وإنهما ليقنحان كل شيء إلا هذه الأمة التي أجمت على ألا يكون الوطن للقدس رقعة من الأرض يهون امتلاكها ، ولا يمز اغتصاب ما فيها ومن فيها ، بل هم استغنوا عن الوطن المقدس بالهد المقدس أن يكون صغيرهم ابن كبيرهم ، وكبيرهم أباً صغيرهم ، وكل كبارهم أشقاء وكل صغيرهم أشقاء ، وأولئك وهؤلاء كأنما انتظم أرواحهم جميعاً سمط واحد من شعاع الشمس لا يقطع أبداً . وإذا كان لا بد لهذا الجوهر الأحد من معارف وبواطن تفرق بينه وبين سواه ، فإن أجلى معارف البهري ابتعاده عن مخالطة أي امرئ

وقال بصوت لا يشي بما عسى أن يكون مطوباً تحت شلوعه « لا تبك يا صاحبي ! ازجر عينك ، إنه قضاء الله ، ولا حيلة لنا فيه ، ومن نكون نحن حتى ندفعه أو نغيره ! » ثم تلفت ، فأقبلوا عليه يسألونه هل يريد شيئاً ؟ قال : « نعم - صبي يهودي » وعاد إلى حجره ، وخيله وحيره ، فلم يقب عنها بعد ذلك مرة أخرى ، ولم يقل لأحد أين كان

ابراهيم عبد القادر المازني

وإنه يرجو أن يرد بذلك بصره عليه ، فضحك « عبد السميع » وقبل . وكان قد ألف أن ينظر الأطباء في عينيه وأن يسمعهم يتلاغظون بما لا يفهم ، ثم يعضون عنه ويبقى « و على حجره وجاء يوم نظرفيه الناس فاذا الحجر خال ، ولا « عبد السميع » هناك ، فصارت الأعتة تلتقي إلى صبيان يشدون بها إلى مسامير في الحائط ، ويتنامون ويتركون الحير تترافس

وكان « عبد السميع » راقداً على سرير نظيف في مستشفى ، وعلى رأسه ووجهه - إلى أرنبة أنفه - الضادات ، وهو ساكن لا يقول شيئاً ، ولا يبدى ألاماً أو خجراً ، ولا يدع شكه بطلب بشره أو شكره لصديقه ، وكان من المسير أن يعرف أحد في أي شيء يفكر هذا الراقد المصوب الرأس . ولده - لطول صمته على خلاف عادة - كان يجاهد أن يتصور الدنيا الجديدة التي سيرتها حين يفتح عينيه عليها ويصرها لأول مرة ؛ ولده كان يستهول أن يبصر كل ما عرفه وألفه بحواسه الأخرى ، وكان كل ما يجيب به الطبيب حين يحذره وهو يغير له الضادات « إن شاء الله ! إن شاء الله ! » ثم يتحرك كالقلق المضطرب على هذا الفراش الناعم تحت الملائة النظيفة

وكان الطبيب واثقاً من نجاحه ، فجمع إخوانه - زملاءه - في صباح يوم ، وحل الأربطة بمنابة وحذر ، ثم ترك ضوءاً خفيفاً يدخل في الغرفة ، وتناول يد « عبد السميع » برفق ، وهو أشد ما يكون اضطراباً وسأله « أترى شيئاً ؟ » فقال عبد السميع - وعلى فمه ابتسامته التي لا تزاله - « صبراً ، صبراً » ، فصر الطبيب لحظة ثم فتح النوافذ فغمر النور الحجرة وملأها الشمس ورقعت أشعتها على السرير والجالس عليه ، والأطباء حافون به ، منحنون إليه ، يحدقون في وجهه وأنفاسهم مسرعة ، وقلوبهم في حلقهم ، و « عبد السميع » ساكن ، ووجهه الباهت من طول الرقاد ، إلى النافذة التي تطل على النيل ؛ ثم تحركت يده ، وارتفعت كفه إلى عيائه ، وجعلت أصابعه المرتعشة تتحسس عينيه ، فأدرك القوم أن الطب أنفق ، وتوجع الطبيب الألمانى وأرفض دمه ، ففطى وجهه يكفيه ليحبس عبراته أو يكتم نشيجه ، وسمع « عبد السميع » ما يتردد من البكاء المكتوم فنهض ، وعلى وجهه ابتسامة رزينة ، ونحس طريقه إلى صديقه المحزون ، ومد يده الخشنة فمسست لحية المسئلة ، فتقلها إلى كتفه